

## الكتاب الخامس

### الشروع بحصار انطاكية

## ( ٢٠ تشرين اول إلى كانون اول )

بدء الحصار - الاستيلاء على حصن حارم - المجاعة في  
المعسكر الصليبي

١٢ - لدى اقترابنا من جسر الحديد ، صادف رجال  
طلانعنا - الذين اعتادوا على التقدم امامنا - في طريقهم فئة كبيرة  
من التركمان متوجهين بسرعة نحو انطاكية لنجدتها ، فما كان منهم  
إلا ان انقضوا عليهم ، وكلهم قلب واحد ويد ضاربة واحدة ، فهزموا  
اولئك التركمان ، وكتبت لهم الغلبة عليهم ، بعدما قذفوا الرعب في  
قلوب اولئك البرابرة ، الذين فروا مخلفين وراءهم عددا كبيرا من  
القتلى (٤٢) ، ولما كان لواء النصر معقودا على مفرق رجالنا ، فقد  
اصابوا بفضل رعاية الرب لهم - غنائم كبيرة من الخيول والجمال  
والبغال والحمير المحملين بالأطعمة والأشربة .

ووصل رجالنا أخيرا إلى شاطئ النهر (٤٣) ، وعسكروا على  
مقربة منه ، وبادر على الفور بوهيموند الحكيم على رأس أربعة  
الاف فارس ، وعسكر امام واحد من أبواب المدينة ، حتى يحول بين  
الدخول إليها أو الخروج منها سرا تحت جناح الظلام ، ووصل بقية  
الجيش إلى انطاكية في اليوم التالي ، وهو ظهر اليوم الرابع من يوم  
الراحة الذي هو الثاني عشر قبل أول تشرين الثاني (٤٤) وتمكنا  
من حصار ثلاثة أبواب من أبواب المدينة حصارا حقيقيا ، ولم يتيسر  
لنا ضرب الحصار من الناحية المتبقية ، إذ كان يحيط بها جبل عالي  
القمة لم يترك لنا سوى عقبة بالغة الضيق .

واستولى الجزع على أعدائنا من التركمان الذين كانوا داخل  
المدينة إلى حد أنهم بقوا خمسة عشر يوما تستبد بهم الدهشة ،

لايستطيعون تحريك ساكن ، ولم يجروا واحد منهم على محاربة واحد من جماعتنا ، هذا وماكدنا نقيم معسكراتنا حول انطاكية حتى لاحظنا ان هذه الناحية وافرة الخيرات فيها اعناب ناضجة بكميات كبيرة ، ومخازن مملوءة بالقمح ، واشجار مثقلة بالفواكه ، كما عثرنا على مختلف انواع الاطعمة الصالحة للاكل .

وداب الأرمن والسريان الذين كانوا داخل انطاكية على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالهرب ، وعليه وجدوا بين صفوفنا كل يوم ، بينما بقيت عيالاتهم داخل المدينة ، وجرت عادتهم على تقصير اخبار احوالنا ومواقفنا ، ثم كانوا يحملون هذه الاخبار إلى المحاصرين الذين اغلقت عليهم منافذ المدينة ومسالكها ، ولما عرف التركمان تمام المعرفة بجميع مايتعلق بنا ، ووقفوا على مجمل اخبارنا شرعوا يخرجون من المدينة شرنمة بعد شرنمة ، ومضوا يحدقون بحجاجنا ، واخذوا يتربصون بنا من كل ناحية ، وبتنا نجدهم يقيمون الكمان لنا في جميع الجهات ، فكانوا نراهم في طريقنا إلى البحر ، واونة اخرى في طريقنا إلى الجبل .

وعلى مقربة من هذه المنطقة قام حصن اسمه حصن حارم ، وقد كمن فيه عدد كبير من اكثر التركمان شجاعة ، وهم من الذين اقضوا مضاجع رجالنا ، ولما عرف قادتنا هذا ، اشتد جزعهم ، وارسلوا عددا كبيرا من الفرسان ليقوموا بأعمال الاستطلاع بغية كشف مواقع التركمان ، حتى اذا تهيأ لهم ذلك ، كبسوهم على رأس قواتهم ، وبالفعل تقهقر رجالنا امامهم ، واستدرجوهم حتى البقع التي كمن فيها بوهيموند وجنده ، ولقي إثنان من رجالنا حتفهما اثناء هذا الاستدراج ، وما إن عرف بوهيموند خبر اقترابهم حتى بادر فانقض على رأس رجاله ، فكان حقا بطل المسيح الشجاع ، وشدد البرابرة هجومهم على رجالنا الذين كانوا ادنى منهم عددا ، واحتدم القتال بين الطرفين ، وهلك العديد من أعدائنا ، ووقع غيرهم في الاسر ثم سيقوا إلى حيث ضربت أعناقهم امام ابواب المدينة ، مبالغة في زيادة الام الذين بها في الداخل ونكالا بهم .

و غادر الآخرون المدينة ، وتسلقوا شرفات السور ، واخذوا  
يرموننا بنشابهم الذي تساقط تساقط المطر على معسكر بوهموند ،  
و أصيبت لنا امرأة برمية قوس أودت بها .

١٣ - واجتمع زعمائنا ، وعقدوا مجلسا للتشاور فيما بينهم ،  
فقالوا : لنقم ببناء قلعة على قمة جبل مرقب كيما نأمن على أنفسنا  
مخاطر التركمان ، وتطمئن قلوبنا فلا نعود نخشاهم ، وما أن أنجز  
بناء القلعة حتى أخذ زعمائنا في التناوب بالدفاع عنها واحدا تلو  
الأخر .

وحدث قبل حلول عيد الميلاد أن شح القمح ، وتناقصت الأقوات ،  
وغدونا لانكاد نجرؤ على مغادرة معسكرنا ، ولم نعد نجد في مناطق  
المسيحيين شيئا يمكن أن نسد به جوعنا ، زد على هذا أنه لم يتجزأ  
واحد منا على الدخول إلى أراض المسلمين ما لم يكن في الجمع  
الكبير والحشد العظيم ، وعند ذلك عقد زعمائنا اجتماعا تشاوروا  
فيه حول إيجاد السبل المجدية لضبط حشد كبير مثل شعبيهم ،  
فاتفقوا بعد المداورات على أن ينهض فريق من رجالنا بالحال ،  
ليعمل ما في وسعه ، ويبذل غاية الجهد لجمع الأقوات ، ولضمان  
حماية الجيش من بيات أوغارة من الخلف ، واتفقوا على أن يظل  
الباقون داخل المعسكر بغية حمايته ، وقال بوهموند مخاطبا  
المجتمعون : « أيها السادة ، أيها الفرسان العقلاء دعوني أمض مع  
كونت فلاندرز إذا شئتم ورايتم ذلك مفيدا » .

وبعدما احتفلوا احتفالا بهيا بعيد الميلاد ، خرجوا يوم  
الاثنين - تالي يوم الراحة - في أكثر من عشرين ألف فارس  
وراجل ، ودخلوا سالمين لم يصيبهم أذى ، إلى مناطق المسلمين التي  
كانت تعج بالتركمان والعرب والمشاركة الذين قدموا من القدس ومن  
دمشق وحلب وغيرها من المدن لنجدة حامية أنطاكية ، ولما جاءتهم  
أخبار زحف الجيش المسيحي على بلادهم ، تأهبوا لحرب  
المسيحيين ، وما كاد الظلام ينقشع أمام بزوغ الفجر حتى كانوا قد

أشرفوا على الناحية التي تجمعت فيها قواتنا ، واندشطر هؤلاء البرابرة إلى شطرين ، شطر تلقانا من الامام وشرط حاول الالتفاف حولنا قصد تطويق قواتنا من جميع الجهات ، لكن كونت فلاندرز الشجاع ، والمسلح بإيمانه وبشارة الصليب ، الذي كان يحمله إخلاصه له على مصاحبته وحمله أينما كان ، كر عليهم في ذات الوقت الذي هاجمهم به بوهموند ، وهكذا حمل رجالنا حملة رجل واحد على العدو ، الذي سرعان ما ولى هاربا لايولي على شيء ، تاركا وراءه عددا كبيرا من القتلى ، وقد استولى رجالنا على خيولهم وسواها من الغنائم ، أما أولئك الذين نجوا من القتل ، فقد استمروا في فرارهم ، وحق عليهم « الهلاك الأبدي » ، أما نحن فقد رجعنا ظافرين مسرورين نسبح ونمجد للرب الذي هو في الوقت نفسه ثالث واحد ، والذي له الملك الآن وإلى الأبد .

امين

الكتاب السادس

حصار انطاكية

( كانون اول ١٠٩٧ - شباط ١٠٩٨ )

هجوم التركمان على الصليبيين وحملة التموين - فرار  
بطرس الناسك ووليم النجار  
رحيل تاتيشوس - انتصار بوهموند على التركمان قرب  
بحيرة أنطاكية

١٤ - وحين ترامى الخبر إلى التركمان - أعداء الرب  
والمسيحية المقدسة - الذين كانوا داخل أنطاكية للدفاع عنها ،  
بتغيب الأمير بوهموند وكونت فلاندرزغن الحصار ، خرجوا منها ،  
وهاجمونا واشتبكوا معنا في قتال شديد ، وكانوا يؤثرون مهاجمة  
المناطق الضعيفة ، ولما كانوا على بينة من غياب هذين الفارسين  
البارعين ، وبعدهما عنا ، فقد عقدوا العزم على مهاجمتنا والقضاء  
علينا في يوم الثلاثاء (٤٥) .

وسار هؤلاء البرابرة المرعبون في ظلام الليل ، وانقضوا علينا  
بشدة متناهية فقتلوا عددا كبيرا من فرساننا ورجالتنا الذين أهملوا  
أمور الدفاع عن أنفسهم ، وخسر أسقف بوي - في يوم البؤس  
هذا - وكيله الذي كان يقود إحدى الكتائب بنفسه ويحمل رايته ،  
ولو لم يكن النهر يفصل بيننا وبينهم لتكررت غاراتهم علينا  
ولأصابوا منا إصابات جسيمة .

وكان بوهموند العاقل آنذاك يقوم بمغادرة منطقة المشارقومه  
جيشه ، ميمما وجهه شطر جبل تانكرد على أمل أن يصادف هناك  
مايمكن نهبه ويستحق بذل الجهد في سبيل الاستيلاء عليه ، ذلك أن  
المنطقة كانت قد نهبت جميعها ، ولهذا وجد بعض عساكره القليل من  
الأشياء ، وعاد بعضهم الآخر صفر اليدين ، فوبخهم بوهموند  
الحكيم بقوله : « أيتها الجماعة التعيسة الشقية ، يا أحمط

المسيحيين قاطبة ، ما الذي حملكم على الإسراع بالخروج ، فلقد كان عليكم الصبر والتريث حتى يلتئم شملنا ثانية ، والاتكونوا هكذا كالقطيع بلا راع ، فلو صادف أن لاقاكم أعداؤنا هانمين مشردين لانقضوا عليكم وفتكوا بكم أي فتك ، لأنهم يترصدونكم ليلا نهارا ، على أمل رؤيتكم بلا قائد يدبر أموركم فيهاجمونكم فرادى أو مجتمعين ، ويعملون على اخذكم أسرى « ، وما إن فرغ من كلامه هذا حتى انكفأ هو ورجاله إلى معسكرهم وقد يذسوا من الحصول على الغنائم .

وعندما رأى الأرمن والسريان رجالنا وقد عادوا بلا شيء يستحق الذكر معهم ، خالين الوفاض ، قرروا التجول في الجبال وفي أطراف الناحية المذكورة والبحث بشكل دقيق عن القمح والأطعمة كيما يشترونها ويبيعوها بها إلى المعسكر الذي انتشرت المجاعة الشديدة فيه ، وغلت الأسعار ، وكانت حمولة الحمار بثمانى بويرات أي مايساوي مائة وعشرين دينارى ، وقد لقي العديد من رجالنا حتفهم خاصة من الذين عجزوا عن دفع هذه الأثمان الباهظة .

١٥ - ودفعت هذه الشدة الكائنة ، والضيق البالغ القسوة إلى تسلل كل من وليم النجار وبطرس الناسك وفرارهما سرا ، وقد مضى تانكرد في أثارهما ، وأعادهما وهما في غاية الخزي ، فقطعا على نفسيهما العهد بالالتزام بالطاعة ، وأقسما له الأيمان المغلظة بأنهما سوف يعودان طواعية إلى المعسكر ، وأنهما سيعتذران للأمرء .

وبات وليم ليلته كلها مقيدا مربوطا بالأرض في خيمة بوهموند ، وهو في حالة كان فيها أنل من الذل ، ومثل في صباح اليوم التالي أمام بوهموند ، وقد احمر وجهه خجلا ، فخاطبه بوهموند موبخا بقوله : « أيها التعس ، ياخزي فرنسا ، ويا عار أهل غاليا وأكثرهم أثاما ، ويا أتعس من على وجه الأرض ، لماذا فررت على هذه الصورة المشينة ؟ ترى هل كنت تنوي خيانة هؤلاء الفرنسان والغدر بهم بتسليم جيش المسيح إلى الكفرة ، كما صنعت بسواهم

من قبل في اسبانيا ؟ ولزم وليم الصمت المطبق ، ولم ينبس ببنت شفه ، واجتمع الغاليون كلهم تقريبا وتضرعوا إلى الأمير بوهموند الا يقسوا عليه اكثر والا يزيد في الامه ، فأجاب سؤالهم ، وقال : « إن محبتي لكم تحملني على الاستجابة لمطلبكم عن طيب خاطر ، اللهم إذا أقسم قسما نابعا من قلبه وروحه ألا يحيد عن طريق القدس سواء في الفرج أم الشدة ، وإذا ما رضيت أنكرد ورجاله بالعفو عنه » ، ولما سمع تانكرد هذه المقالة أبدى رضاه ، وكان سرعان ماخلى بوهموند سبيله ، لكن ماحدث فيما بعد أن استولى الخزي على وليم النجار ، فما لبث أن أختفى بعد هربه .

واشدت الفاقة وعظم البؤس اللذان ادخرهما الرب لنا جزاء خطايانا ، حتى لم يعد في الجيش كله من الفرسان أصحاب الجياد السليمة غير ألف فارس .

١٦ - وتناهت الأخبار إلى عدونا تاتيشوس بأن جيوشا من التركمان زاحفة نحونا ، فاستبد به الخوف الشديد ، وخيل إليه أنه قد فتك بنا من قبل عدونا ، أو أننا سبقطنا جميعا أسرى في يديه ، فراح يدعي مختلف الدعاوى وينتحل مختلف الأعذار الواهية ، فقال : « انظروا أيها السادة ، أيها الرجال العقلاء مانحن فيه من الضنك ، لقد عدمنا النجدة ، وضائق بنا السبل ، فدعوني أعود إلى القسطنطينية ، وكونوا على ثقة بأنني سأعود إليكم ببحر قد غطته السفن المحملة بالقمح والشعير والنبيد واللحوم والطحين والجبين لابل كل ماتحتاجونه ، وسأبعث إليكم بجياد الخيل للشراء ، وستصلكم المؤن عبر الأراضي التي تدين بالطاعة للامبراطور ، وأقسم لكم على صدق هذا كله ، وإن أهل بيتي وسراقتي باقون في المعسكر ، لهذا كونوا على ثقة من رجوعي إليكم على جناح السرعة

ولما أنهى هذا العدو خطابه مضى مخلفا كل مايملكه في المعسكر ، مضى وهو حانث بيمينه وسيظل حانثا به ، وكنا آنذاك في أشد

ساعات الحاجة ، حيث ضيق التركمان علينا الخناق من جميع الجهات ضيقا لم نجروء حباله على مغادرة خيمنا ، فكابدنا من مجاعة هددتنا بالفناء ، ولقد عدنا كل عون وكل نجدة ، وفر صغار القوم والفقراء إلى قبرص وإلى الأراضى الرومانية ، كما هرب بعضهم إلى الجبال ، وكانت خشيتنا من التركمان المفسدين قد جردتنا من الجراة على الذهاب إلى البحر ، وبذلك سدت أمامنا جميع منافذ النجاة .

١٧ - ولما تنامت الأخبار إلى بوهموند بأن حشدا كثيفا من التركمان ، يفوق العد والحصر زاحف نحونا ، اقتضاه ما جبل عليه من حكمة وغيره على مصالح الآخرين أن خاطب الأمراء بقوله: «أيها السادة ، أيها الفرسان العقلاء ، ترى ما نحن صانعون؟ إننا لسنا من الكثرة بما يمكننا من المحاربة على جبهتين ، لكن هل تعرفون ما نحن فاعلون؟ أرى أن ننقسم إلى قسمين ، حيث يمكث الرجال في المعسكر لحماية الخيام ولاشك أنهم سيتمكنون بفاعلية من الدفاع عن أنفسهم ضد شحنة المدينة ، أما الفرسان فيظلون معنا بغية التصدي لأعدائنا الذين أقاموا معسكرهم على مقربة منا عند حصن حارم و جسر الحديد .»

ومع حلول الظلام خرج بوهموند الفطن من معسكره ومعه بقية الفرسان العقلاء ، وأمضى الليل فيما بين النهر والبحيرة ، ومع تباشير الفجر أرسل طلائعه لتبحث له عن مواضع التركمان وعدد كتائبهم ، وانطلق رجال الطلائع لتوهم ، وأخذوا يفتشون عن التركمان ويستطلعون أخبار تحركاتهم ، وما كان إلا أن شاهدوا الكثير من التركمان قادمين من جهة النهر ، وهم منقسمون إلى فرقتين ، وكانت الفرقة الكبيرة في الخلف ، وسرعان ما عادت الطلائع وهي تنادي : « انظروا هاهم أولاء ، لقد جاءوا على اهبة الاستعداد ، فهم على وشك الاقتراب منكم .»

والتفت بوهموند الحكيم نحو الفرسان وخاطبهم بقوله : « ايها

السادة ايها الفرسان الذين لا يقهرون عبثوا صفوكم للقتال ، ،  
فردوا عليه بقولهم « انك رجل عاقل ، وانك فطن كما انك عظيم  
مبجل ، انت ايها المقاتل الشجاع ، ياليت المعامع ، ويا بطل  
المعارك ، ايها المتحكم بضمائر الحروب ، افعل ما تراه مناسباً ،  
فقد اوكلنا امورنا اليك ، لتعمل كل ما تراه نافعا لنا ولك . » .

وامر بوهوموند آنذاك كل مقدم ان يعبىء فريقه تعبئة تامة ، فنفذوا  
تعليماته ، والتزموا بأوامره ، وكونواست فرق ، تقرر ان تقوم  
خمس منها بمهاجمة الاعداء ، وتراجع بوهوموند بفرقته على مهل  
نحو الخلف ، واستبشر رجالنا ، فاشتبكوا مع الاعداء ، وتراجع ،  
والتحمت كل فئة بفئة وتعالى الصيحات الى عنان السماء ،  
وتحاربوا جميعاً ، وحجب نور الشمس وابلا من الذناب هطل من  
كل مكان .

ولما وصل عسكر الفريق الاكبر من جيشهم الذي كان مقيماً  
بالخلف ، هجموا بكل شدة وعنف على رجالنا ، فأخذوا يتقهقرون  
رويداً رويداً ، ولما رأى بوهوموند العاقل هذا المشهد تألم ودعا اليه  
حامل رايته روبرت بن جيرارد ، وقال له : « امض بما اوتيت من  
سرعة فانت اشجع الرجال واندفع بكل حماس في نجدة دين الرب  
والقبر المقدس ، واعلم ان هذه الحرب ليست حرباً مادية بل حرباً  
روحية وكن اشجع شجاعان المسيح ، صحبتك السلامة ورعاك الرب  
حيثما كنت » وما ان لف نفسه بشارة الصليب حتى اندفع كالليث  
الذي حبس عن الطعام ثلاثة ايام او اربعة ، وخرج من غياله يزمجر  
فيه ظمأً شديداً لسفك دماء القطعان ، وانقص لساعته والقى بنفسه  
وسط ميدان الوغى معملاً سيفه وسط قطيع من النعاج . راحت تفر  
من امامه هنا وهناك ، ثم صار في وسط صفوف التركمان ، واتسدت  
في حملاته ومطارداته حتى ان شعاع رايته كان يرى بريقه من فوق  
رؤوسهم .

وسرعان ما اوقف المقاتلون الآخرون تقهقرهم ، حينما رأوا راية

بوهوموند تخفق عالية امام رايات الاخرين ، وكر جميع رجالنا كرة رجل واحد ، وحملوا على التركمان الذين فشلوا واستتبت بهم الدهشة ، فلانوا باذيال الفرار ، فأخذ رجالنا في مطاربتهم ، وراحوا يعملون القتل فيهم حتى بلغوا جسر العاصي ، وسرعان ما انقلب التركمان الى معسكرهم فحملوا كل ما امكنهم حمله ، ثم القوا النيران فيما بقي من اشياء ، وولوا هاربين ، ولما علم الارمن والسريان خبر فرار التركمان في هذه الموقعة خرجوا من قراهم ، وتربصوا في المكامن التي نصبوها لهم في الممرات والمسالك وقتلوا العديد منهم واسروا .

وهكذا قضت مشيئة الرب ان تدور الدائرة على اعدائنا في ذلك اليوم ، ونجح رجالنا في استرداد الخيول وغير ذلك من الاعددة التي افادوا منها فوائد كبيرة ، وحملوا مائة رأس من رؤوس القتلى الى امام باب المدينة حيث نصبت خيام رسل صاحب مصر الوافدين على مقدمينا (٤٦) .

اما المحاربون من الرجالة الذين مكثوا في المعسكر فقد شغلوا طوال يومهم بقتال شحنة انطاكية امام ثلاثة ابواب من ابواب المدينة ، وجرت هذه الموقعة يوم الثلاثاء (٤٧) السابق لبدء الصوم الكبير ، وكل ذلك برعاية ربنا يسوع المسيح الذي مضى ليحكم مع الاب والروح القدس ، الرب له الحكم السرمدى . آمين

الكتاب السابع

حصار انطاكية

## الحملة على السويدية - اقامة حصن المحمرة

١٨ - ورجع رجالنا بفضل رعاية الرب منصورين مستبشرين بنصرهم الذي حباهم به في ذلك اليوم ، أما أعداؤنا المغلوبون على أمرهم فقد هزموا هزيمة ساحقة ، ومضوا في فرارهم وهاموا على وجوههم شاردين هنا وهناك ، فمضى بعضهم الى خراسان وانطلق بعضهم الآخر الى بقية الأراضى المسلمة ، ولما رأى قائدنا أن شحنة المدينة ازدادت هجماتها علينا مع الاقتراب منا ، سهروا ليلهم ونهارهم بحثا عن الناحية التي يمكن لتلك الشحنة مباغتتنا منها ، وبناء على ذلك عقدوا مجلسا للتشاور في المسألة وقالوا : « يجب علينا قبل أن نقدم على حرب تودي برجالنا أن نشيد حصنا على المحمرة الواقعة أمام باب المدينة حيث يوجد الجسر ، ومن هنا ربما تمكنا بدورنا من تضيق الحصار على عدونا »

ووافق الجميع على هذا الرأي ، واستصوبوا المشروع استصوابا عاما ، وكان كونت صنجيل أول من تكلم فقال: « أمدوني بالعون اللازم لاعادة بناء هذا الحصن ، وسأحصنه وأتولى حمايته » ، وانبرى في الحال بوهموند قائلا: و أنا سأذهب معك اذا رضي الآخرون ، الى باب سمعان لجمع الرجال القادرين على القيام بمثل هذا العمل (٤٨) ، اما الذين سيبقون هنا فسوف يعملون على تحصين بقية الجهات للدفع عن أنفسهم « وهكذا كان منا اتفقوا عليه .

عند ذلك رحل الكونت ( صنجيل ) ويوهموند الى السويدية ، أما نحن فقد انضم بعضنا الى بعض وصرنا جماعة واحدة ، وشرعنا في بناء الحصن ، وإذا بالترکمان قد أعدوا أنفسهم ، وخرجوا للهجوم علينا ، وبالفعل انقضوا انقضاضا

شديدا دفع رجالنا الى الهرب وأدى الى هلاك العديد منهم مما سبب لنا رعبا شديدا.

ولما لاحظ التركمان في اليوم التالي (٤٩) تغييب قادتنا ، وعرفوا انهم قد خرجوا في الامس قاصدين الميناء ، جمعوا شملهم ومضوا لاعتراض الذين كانوا قادمين من ناحية الميناء ، ولما رأوا الكونت بوهموند على رأس العساكر زمجروا وهللوا واندفعوا بكل شدة ، وأحدقوا برجالنا من كل جانب يمحطونهم برشقات الذشاب ، فأوقعوا فيهم القتل والجرح ، ثم انقضوا عليهم بهجوم شديد ، فاضطروهم الى الفرار الى الجبل الشاهق والى كل جهة حسبوا أنها تعصمهم منهم ، ولم تقيض الحياة الا الى أولئك الذين تمكنوا من الاختفاء بالهرب السريع ، أما الذين عجزوا عن الفرار فقد لاقوا حتفهم ، واستشهد في هذا اليوم أكثر من ألف من فرساننا ورجالنا ، وفي يقيننا أنهم عرجوا الى السماء حيث ارتدوا ثياب الشهادة البيضاء.

ولم يزحف بوهموند عبر نفس طريق البقية ، بل سرعان ما انقلب عائدا بفرقة فرقة من الفرسان ، ووصل الى حيث كنا مجتمعين ، ولما كان الغضب قد اشتد بنا لمصرع رجالنا ، فقد أعدنا ضم صفوفنا وانضمنا اليهم ، وهتفنا معا باسم المسيح ، وكنا كلنا ثقة بالنصر وبيبلوغ القبر المقدس ، وقرقرارنا على مناجزة العدو القتال ، وأن نكون جميعا يدا واحدة في الهجوم عليه ، وأبدي أعداء الرب ورجالنا ما أذهل وأرعب ، فقد كان التركمان موقنين من النصر علينا ، وأنهم سيقضون علينا كما سبق على عساكر الكونت ( صنجيل ) وبوهموند ، لكن الرب المتعالي لم يمكنهم من ذلك ، فقد انقض عليهم فرسان الرب الحق ، المسلحون بشارة الصليب ، انقضاضا شديدا ، أسلموهم به الى الفرار عبر الجسر الضيق ، واستمروا في فرارهم حتى مداخل المدينة ، لكن الذين لم يتمكنوا من الفرار وعبور الجسر ، والنجاة بنفوسهم ، لضيق المنفذ ، وشدة الازدحام ، فقد لاقوا في هذا المكان الموت

الشرمدي ، وذهبوا الى نار جهنم الابدية المعدة لابليس وملائكته (٥٠) ولما تم النصر على التركمان ، شددنا عليهم الحصار ، ودفعناهم نحو النهر ، ورميناهم به ، فاصطبغت مياهه المتدفقة بدمائهم ، وكان الواحد منهم إذا حاول تسلق أعمدة الجسر ، أو أراد السباحة حتى اليابسة ، تولى أمره نشاب رجالنا الذين كانوا يغطون شاطئ النهر ، وامتلا المكان بصراخهم وعويلهم وصيحات رجالنا ، حتى شقت الأصوات عنان السماء ، وسقط وابل من النبال والنشاب حجب نور الشمس من أن يلمحه أحد ، ووقفت نساء المدينة المسيحيات على شرفات الأسوار يرقبن هزيمة التركمان وهن يخفين سرورهن.

واستجاب الأرمن والسريان - طوعا أم كرها - لأوامر التركمان وأخذوا ينضحوننا بالنشاب ، وهلك في هذه الواقعة اثنا عشر أميرا من أمراء التركمان ، كما قتل كثيرون سواهم من خيرة المحاربين وأشجع المقاتلين ، الذين كانوا يعدون بين خيرة المدافعين عن المدينة ، حتى بلغ عددهم ألف وخمسمائة رجل ، أما الذين كتبت لهم النجاة والبقاء فلم يعودوا يملكون الجراءة على الصراخ والتهليل سواء في الليل أم النهار ، كما جرت عادتهم ، ولم يحل بيننا وبينهم غير حلول الليل ، فالظلام هو الذي أوقف الفريقين عن المحاربة واستعمال السيوف والرماح والنشاب ، وبهذا استطعنا بقدره الرب والقبر المقدس ، أن نهزم الأعداء ، الذين فقدوا ما ملكوه من مقدرة على الصراخ والكفاح.

وأصبنا في هذا اليوم كميات كبيرة من الغنائم فيها الكثير من الحاجيات الضرورية لاسيما الخيول •

ومع صباح اليوم التالي (٥١) خرج من المدينة جماعة جديدة من التركمان تولت جمع ما وجدته على طرف النهر من جثث قتلاهم ثم اخذت هذه الجثث وقامت بدفنها في ( المحمرة ) الواقعة خاف الجسر امام باب المدينة ، ودفنوا مع هذه الجثث جيبا (٥٢) وبيزنتيات

وقطعا من الذهب وقسيا وسهاما وغير ذلك من الحاجيات التي  
لأعرف لها اسما ، ولما تنامى الى رجالنا ان التركمان قد دفنوا  
موتاهم حملوا عدتهم وأقبلوا مسرعين نحو تلك المقبرة الشيطانية  
فدمروا جميع الاضرحة ونبشوها وطرحوا ما كان فيها من جثث  
بعيدا ثم جمعوها والقوها في خندق حفروه لها ، كما قطعوا رؤوس  
القتلى وحملوها الى المعسكر (٥٣) ليعرف القوم عدد القتلى هذا عدا  
عن كمية من الرؤوس حملوها على اربعة من الخيول العائدة الى  
رسل صاحب مصر ، ويعتوا بها ناحية البحر ، ولما رأى التركمان  
هذا المشهد ، استولى عليهم الجزع وصاروا يبكون قتلاهم.

وفي اليوم الثالث (٥٤) ، انضممنا جميعا والتأم شملنا ، ونحن في  
غاية السرور ، وبغية العمل على بناء الحصن المشار اليه آنفا  
بالأحجار التي انتزعناها من مقابر التركمان ، وما كاد ينجز بناؤه  
حتى أخذنا في التضيق على اعدائنا من كل جانب ، وزال زهو  
الأعداء اما نحن فقد بتنا نذهب مظمئين تماما انى أردنا ، سواء  
الى الجبل او المرسي ، نسبح بحمد الرب ، الذي له المجد والعلو  
السرمدى ، أمين.

## الكتاب الثامن

نهاية حصار انطاكية والاستيلاء عليها

( من ٨ آذار الى ٣ حزيران ١٠٩٨ م )

تانكرد يحتل حصنا على فم نهر المدينة ويسد جميع المنافذ على المحاصرين.

المفاوضات بين بوهموند وفيروز الأرمني. الاستيلاء على أنطاكية.

١٩ - سدنا جميع المنافذ أمام التركمان وأغلقناهما بونهم الا من جهة النهر ، التي كان بها حصن واحد مع بئر منفرد ، ولو كان هذا الحصن تحت حكم رجالنا لما جرؤ واحد منهم على الخروج من واحد من أبواب المدينة ، ولاغلقنا جميعا في وجوههم ، لذلك التأم شمل رجالنا للتشاور فيما بينهم ، وانعقد رأيهم على قولهم: « لنختار واحدا منا بغية الاستيلاء عن طريق القوة على هذا الحصن ، وليحل بين أعدائنا وبين الوصول الى السهل ، أو اللنو من الجبل ، وكذلك لاغلاق جميع منافذ المدينة ومخارجها ، وكان تانكرد أول من استجاب وقدم نفسه قائلا: « لو أنني أعرف الفائدة التي سأجنيها من الاستيلاء على الحصن ، فأنني سأحتله مع رجالي وحدهم ، وسأمنع العدو منعا باتا عن طرق السبيل الذي كثيرا ما جرت عانتهم على مداومتنا منه .»

وبادر تانكرد على الفور ، وانطلق (٥٥) مع فرسانه وجنوده الاشائوس ، وسرعان ما أخذ جميع الممرات على التركمان وسدها بشكل محكم ، الى حد أنهم - وقد استبد بهم الفزع - لم يتجرؤوا على فتح واحد من الابواب لجمع الاعلاف والحطب ، أو أي نوع من الحاجيات الأخرى الضرورية لهم ، ومكث تانكرد هناك مع عساكره ، وأشرع في محاصرة المدينة من جميع الجهات.

واقبل في ذلك اليوم الى المدينة فريق كبير من الارمن  
والسريان ، وهم في غاية الاطمئنان ، وكانوا يحملون معهم المؤن  
والاقوات للتركمان وأهل المدينة ، فنهض تانكرد للتصدي لهم  
وأخذهم ، وبالفعل استولى على جميع ما كان معهم من الاقوات  
من: قمح ونبيذ وشعير وزيت وما شابه ذلك ، وكان تانكرد قد أظهر  
غاية القوة ، وجاء بالأمور المدهشات ، حيث تمكن قبل سقوط  
انطاكية من سد جميع المنافذ أمام التركمان واستولى عليها .

وإنه لمن المحال بالنسبة لي قص جميع ما قمنا قبل احتلالنا  
للمدينة كما لا يمكن لأي كان ممن وجد في تلك النواحي . من  
الكليروس أو العلمانيين أن يكتب أو يروي بالتمام كيف جرت  
الأمور ، ومع ذلك فسأروي الشيء القليل منها .

٢٠ - وكان هناك قائد تركماني الأصل اسمه « فيروز » (٥٦) قد  
تأثت الصداقة بينه وبين بوهموند ، وكان بوهموند يلوح له في  
الرسائل المتبادلة بينهما بموته ويمنيه بها ، ووعده بمكانة سامية  
إن هو اعتنق المسيحية ، وراح يمنيه بالشرف العظيم ، والثراء  
الكبير ، فوثق فيروز بتلك الوعود ، وركن الى تلك الاقوال ، وأخبره  
بقوله : « إنني أتولى حراسة ثلاثة أبراج ، وانني اعدده بالتنازل  
عنها ، وبتسليمها عن طيب خاطر يوم يشاء ، وسأكون دائما على  
استعداد للترحيب به فيها » .

وعندما تيقن بوهموند من امكانية دخوله المدينة ، انشرح  
صدره ، واطمأن قلبه ثم توجه نحو بقية الامراء وهو ثابت  
الجنان ، واثق ، وخاطبهم وكله بشر بقوله : « أيها الفرسان  
العقلاء عليكم أن تتفحصوا حالة الشقاء والمرارة التي نحياها  
صغارا وكبارا ، فنحن لا ندرى من أين ستأتينا النجدات ، وعليه  
فلعله يرضيكم ويشرفكم أن يتطوع أحدنا فيرشح نفسه ويتقدمنا  
جميعا ، فإن مكنته احدى الوسائل أو براعته من الاستيلاء على  
المدينة ، أو مهاجمتها بمفرده أو بمعونة الآخرين أجمعنا الرأي على

أن نملكه اياها ، ولم يقبل الأمراء بعرضه واعترضوا عليه بقولهم: « إننا لا نرضى أبدا أن ينفرد واحد منا وحده دون سواه بتملك هذه المدينة ، بل سوف نتقاسمها جميعا فيما بيننا بالتساوي ، وحيث أننا جميعا قد اسهمنا في هذا العمل واشتركنا فيه ، ينبغي أن نتقسم شرف الاستيلاء عليها. »

وعند سماع بوهوموند هذا الرد ، ابتسم ابتسامة خفيفة ، فيما بينه وبين نفسه ، وتركهم لكن حتى حين ، ولم يلبث غير قليل حتى جاءتنا الأخبار تحمل اليانا نبأ اقتراب أعدائنا التركمان والعوام وغير الأرتونكس وسواهم من الشعوب ، وسرعان ما اجتمع مقدمونا للتداول في الأمر ، وقالوا : « إذا قدر لبوهوموند الاستيلاء على المدينة وحده ، أو بمعونة الآخرين علينا أن نسلمها له عن طيب خاطر ، مشترطين عليه الوفاء بعهدونا مع الإمبراطور ، في المساعدة على رد المدينة اليه اذا قدم لنجدتنا بنفسه ، والتزم بالاتفاق الذي ابرمه معنا وأقسم على التمسك به ، وإن لم يفعل ذلك تركناها في عهدة بوهوموند .»

و عند ذلك بادر بوهوموند الى ملاحقة صديقه ( فيروز ) يوميا ، وسعى الى اغرائه بجميع ضروب الوعود والربح الكبير ، وخاطبه بقوله: « لقد دنت الساعة المناسبة التي يمكنك فيها انجاز ما اتفقنا عليه في سبيل صلاح أمورنا ، وذلك بأن تقدم لي يا صديقي فيروز المساعدة التي وعدتني بها ، وتجاوب فيروز وأبدى سروره ، واستعداده لتقديم المساعدة حسب الطريقة التي يراها مناسبة:

ولما كانت الليلة التالية،(٥٧) بعث فيروز ابنة سرا الي بوهوموند ليدقى عنده بمثابة رهينة ، وذلك تأكيدا منه على انه سوف يدخله البلد ، ويمكنه منها ، وأنفذ معه الرسالة التالية: « ينبغي عليك أن تقوم غدا باستدعاء جميع جيوش الفرنجة ، وتتناظر بالذهاب الى المنطقة التي يقطنها المسلمون بغية تخريبها ، ثم تلوي عنانك على

عجل عبر الجبل القائم على اليمين ، وسأقوم أنا في ذلك الحين بملاحظة هذه القوات ، وسأنتظر وصولها لاستقبالها في الأبراج التي هي في حوزتي وتحت اشرافي .»

وقام بوهوموند على الفور باستدعاء واحد من رجالته واسمه ميل كورون ، وناولته تعليماته التي قضت باستدعاء جيش الفرنجة العظيم للتأهب للزحف على أراضي المسلمين ، ونفذت تعليماته هذه ، وعهد بوهوموند في الوقت نفسه الى الأمير غودفري ، وكونت فلاندرز وكذلك ، كونت صنجيل وأسقف بوي بالاشراف على تنفيذ الخطة ، وقال « ستسلم لنا انطاكية هذه الليلة بعناية الرب ورعايته .»

وجرى تنفيذ كل شيء حسب الصورة التالية: تجمّع الفرسان في السهل ، وأقام على الجبل جماعة الرجال ودأبوا على الزحف والحركة طوال الليل بعضهم في إثر بعض حتى اقترب الفجر ، ثم اقتربوا من الأبراج التي ظل شحنتها سهران بها ، وسرعان ما ترجل بوهوموند ، وأصدر أوامره الى الذين كانوا معه ، وقال لهم: « تقدموا ، وامضوا قدما مطمئنين متحدين ، وتسلقوا السلالم الى انطاكية ، التي ستقع الآن في أيدينا بمشيئة الرب »

وسار هؤلاء حتى وصلوا الى السلم المثبت على اسوار المدينة تثبيتا شديدا ، فصعد عليه زهاء ستين رجلا من رجالنا ، وتفرقوا على الابراج التي كانت تحت اشراف فيروز ، ودب الرعب في قلب فيروز ، وخشي على نفسه وعلى رجالنا من الوقوع في ايدي التركمان وذلك حين شاهد المتسلقين على السلم لايعدون شزيمة ضئيلة العدد ، وصاح بهم : « ما اقل عددكم ايها الفرنجة ، اين بوهوموند الشجاع ، اين هذا الفارس الذي لايقهر .»

ونزل في هذه الساعة جندي لومباردي (٥٨) ، واندفع نحو بوهوموند مخاطبا اياه بقوله : ترى ماهو معنى توقفك هنا ايها الرجل

الحكيم ، انسيت ماجئت من اجله ، اما ترانا قد استولينا على ثلاثة ابراج ؟! ، واثارت هذه العبارات بوهوموند ، فسارع بالانضمام الى الاخرين ، واندفع الجميع نحو السلم بحماس شديد ، وماكاد الذين فوق يلمحون هذا المشهد حتى تعالى هتافهم وهم في سرور وذنوة مرددين « انها ارادة الرب » ورددنا نحن الهتاف نفسه ، وعندئذ بدأ الارتقاء المدهش ، حيث تسلقوا الاسوار ، حتى اذا بلغوا الشرفات انطلقوا مسرعين نحو الابراج وهم يقتلون كل من يصادفوه او يعترض سبيلهم ، حتى انه كان من بين القتلى اخو فيروز نفسه .

لكن السلم الذي ارتقيناه عليه تحطم ، مما احزن قلوبنا وواقعنا في كرب شديد ، وعلى الرغم من تحطمه ، فقد كان يوجد الى اليسار منا باب مغلق ، لايدري احد عنه شيئا ، وكان الظلام مايزال مخيما ، واخذنا نتحسس الطريق نحو هذا الباب ، وافضى بنا البحث عنه الى العثور عليه ، فتسابقنا اليه ، وحطماناه وبخلنا منه الى المدينة .

وبوت في هذه الساعة صيحة مجلجلة في ارجاء المدينة جميعا ، ولم يضع بوهوموند الوقت ، بل يادر الى الامر برفع رايته المجيدة على رابية مواجهة للقلعة .

وعندما اشرفت شمس الصباح ، ترامت الاخبار المخيفة التي هزت المدينة الى ( الفرنجة ) الذين كانوا لايزالون مقيمين في معسكراتهم ، فخرجوا مسرعين ، فشهدوا راية بوهوموند تخفق على احد المرتفعات ، وسرعان مااقبلوا مسرعين فهجموا المدينة وبخلوها من ابوابها ، وقتلوا كل من صادفوه في طريقهم من التركمان والمسلمين ، ولم ينج من الموت الا الذين تهيا لهم الفرار الى قلعة المدينة ، وخرجت جماعة اخرى من التركمان من الابواب ، ورات سلامتها في الفرار .

اما اميرهم يغي سغان (٥٩) فقد نجا هو الاخر ضمن كثيرين ممن

فر معه ، واخذهم فرارهم الى بقعة عسكر بها تانكرد ، ولم تكن بعيدة عن المدينة ، نظرا لتعب خيولهم فقد انعطفوا نحو احد الدساكر ، واعتصموا ببيت كان هناك ، وبعد هنيهة عرف السكان من الارمن والسريان خبرهم ، فهجموا عليهم ، وقبضوا على يغي سغان ، فقتلوه وقطعوا رأسه وحملوه الى بوهموند لينالوا الجائزة. وبيع جهازه وسلاحه بستين قطعة ذهبية .

وجرت هذه الحوادث في اليوم الثالث من شهر حزيران اي خامس يوم بعد يوم الراحة ، وامتلات شعاب المدينة وطرقاتها بجثث القتلى ، حتى غدا من المستحيل السير فيها للرائحة النتنة المتصاعدة منها ، ولم يتمكن واحد منا من السير في الطرقات الا على جثث القتلى .

## الكتاب التاسع

### حصار التركمان انطاكية

( من ٥ حزيران حتى ٢٨ حزيران ١٠٩٨ م )

وصول أم كربوقا الى أنطاكية - رسالة الى الخليفة عن الجيش الصليبي - موقف أم كربوقا وميلها الى المسيحيين - هجوم كربوقا على أنطاكية - قصة الرؤيا - يمين زعماء الصليبيين - رؤيا بطرس - حريق أنطاكية والمجاعة فيها - هرب كونت شارتر الى الامبراطور - الحربة المقدسة - سفارة بطرس وهرلوان الى المعسكر الاسلامي - انتصار الصليبيين .

كان كربوقا - مقدم عساكر ملك فارس - (٦٠) موجودا في خرسان حينما وصله من يغي سغان - صاحب أنطاكية - عدة رسائل الخ عليه فيها بالمبادرة الى انجاده ، لان حصار الفرنجة الاقوياء له في أنطاكية قد أضرب به ضربا عظيما ، ولو استجاب له كربوقا على الفور وبعث اليه بالعساكر لنجته لسلمه يغي سغان أنطاكية ، أو لقاتله بجائزة كبيرة ، وكان كربوقا قد أعد للأمر عدته ، وماكاد يحصل على انن الخليفة - إمامه الروحي - بالتوجه للقتال ضد المسيحيين ، حتى بادر الى جمع جيش كبير من التركمان زحف على رأسه في الطريق الطويل الى انطاكية .

وجاء والي القدس الى نجته ، كما قدم أمير دمشق هو الآخر على رأس جند كثيف ، وجمع كربوقا حشودا كبيرة جدا من الغز والتركمان والعرب والمسلمين والعمامة وغير الارثوذكس والاكراد والفرس والغلمان وسواهم من الاقوام الأخرى التي لاحتصر لها ولاعد ، وكان عدد الغلمان ثلاثمائة ألف رجل شاكى السلاح من القسي والرماح مسبرلين بالحديد هم وخيولهم ، كل هذا مع مااعتابوا عليه من الاقتصار على حمل السيوف في الحروب نون

سواها من بقية الاسلحة ، لقد قدم هؤلاء جميعا لفك الحصار عن انطاكية وصد الفرنجة وتمزيق صفوفهم .

ولما اقتربوا من انطاكية صادفهم شمس الدولة بن يغي سغان أمير انطاكية فأسرع نحو كربوقا متوسلا اليه باكيا ، مخاطبا اياه بقوله : « أيها الأمير الذي لا يغلب ، أتوسل اليك أن تهب لنجستي لأن الفرنجة يحاصرونني - وأنا ما زلت في قلعة انطاكية - من جميع الجهات ، وقد وقعت المدينة في أيديهم ، وهم يبتغون اقتلاعنا من أراضي سلاجقة الروم ، ومن الشام ، بل حتى من خراسان ذاتها ، وقد أمضوا ما أراونا فقتلوا أبي ، ولا هم لهم الآن الا القضاء علي وعليك وعلى جميع ابناء جنسنا ، وانني أتوقع منك العون تبذله لي ، والمساعدة في تخليصي من هذا الضيق ، فأجابه كربوقا بقوله : « اذا أردت عوني ونجستي بصدق ، وأن أبذل قصارى جهدي في سبيل نفع هذا الخطر عنك ، فسلمني هذه القلعة ، وانذاك ستترى اية خدمة يمكن ان أؤديها اليك ، فأنا سأجعلها في عهدة رجالي . »

فرد عليه شمس الدولة قائلا : « لئن تمكنت من القضاء على الفرنجة جميعا وأسلمتني رؤوسهم فسأتخلي لك عن القلعة وأصبح واحدا من رجالك ، والقلعة من أملاكك . فأجابه كربوقا : « لالن يكون الأمر كما تقول ، بل إن كل شيء مرهون بتسليمك القلعة ، فأذن شمس الدولة وتنازل له عن القلعة راضيا أو كارها .

ووصلت طلائعهم الى اسوار انطاكية في اليوم الثالث (٦١) بعد دخولنا المدينة ، وعسكر جيشهم عند جسر العاصي ، وانقضوا على احد الأبراج (٦٢) ، فقتلوا كل من صادفوه فيه ، ولم ينج منهم غير مقدمهم عثرنا عليه مقيدا بالسلاسل ليدهم اثر المعركة الكبرى (٦٣) .

وتحرك جيش الكفار في اليوم التالي (٦٤) ، واقترب من اسوار

المدينة ، وأقام معسكره بين النهرين ولبث هناك مدني يومين ، ولما تسلم كربوقا القلعة دعا اليه واحدا من قادته (٦٥) ، وقال له: « اريدك ان تكون وفيما لي مخلصا في ولاية القلعة ، وأنا أعلم منذ زمن طويل وفاءك واخلاصك ، وانني عاهد بأمر الدفاع عنها والمحافظة عليها اليك ، فأجابه هذا القائد « بودي لو أعفيتني من هذا الأمر ، ومع هذا فانني أقبل به على شرط واحد ، وهو أن أقوم بتسليم القلعة الى الفرنجة ان هم أوقعوا بك وهزموك » فرد عليه كربوقا بالقبول وقال له : « امض لما أمرت به فأنا أقدر فيك صدقك وعقلك ، وأرتضي بكل ماتراه وترضي به من خير » .

ورجع كربوقا الى جيشه وأراد التركمان أن يقللوا من شأن الفرنجة ، فأتوه بسيف رخيص قد علاه الصدا ، ويقوس مسود ، وبحربة غير صالحة للإستخدام كانوا قد أخذوها من جماعة من فقراء الحجاج ، وقالوا : « انظر هذه هي الأسلحة التي يحملها الفرنجة في حربهم لنا ، فافترفاهه عن ابتسامه فيها سخرية وقال : « أهذه حقا الأسلحة الجيدة الحادة التي ينشد المسيحيون قهرنا بها في أسية ، والتي يظنون أنهم قادرون بها على طرنا الى ماوراء خراسان وإزالتنا من تلك الديار حتى أنهار الامازونيين (٦٦) ، هؤلاء المسيحيون الذين اجلوا اخواننا من أسية الصغرى ، ومن أنطاكية ، المدينة الفاخرة وحاضرة بلاد الشام جميعا » .

ثم باذر الى استدعاء كاتبه وقال له : « اكتب الآن جميع المناشير التي ستقرأ في خراسان وقل فيها : الى خليفتنا الجليل ، والى مولانا السلطان المعظم والفراس الشجاع ، والى جميع امراء خراسان العقلاء ، السلام عليكم ، والتوقير والاحترام لكم ، وبعد : فليتهيا للمقام العالي من السعادة والتوفيق الكريم مايتيح لهم النعمة والشكر في جميع البلدان ، والانصراف نحو النود عنهم ومنعتهم ، وانجاب النرية الكثيرة العدد لتتمكن من جهاد المسيحيين بكل شجاعة ، ونحن أخذنا الجيوش الثلاثة واستطعنا

بها قهر فريق من الفرنجة ، ولقد عرفنا صفة السلاح الذي استخدمه الفرنجة في حربنا ، وليعرف الجميع انني اخذت الفرنجة الذين في انطاكية ، واستوليت على القلعة وصارت في يدي ، ولسوف يساق الفرنجة الى الموت او الاسر في خراسان ، فهم الذين يتوعدونا بالطرده على يد جيوشهم وبالجلاء عن بلادنا ، كما فعلوا حين اجلوا ابناء قومنا من اسية الصغرى والشام ، واني لاقسم لكم بمحمد وبجميع اربابنا (٦٧) لن اقف بياكم وامثل امام جنابكم قبل ان اجاهد بحد سيفي القوي مدينة انطاكية الفاخرة وجميع بلاد الشام و اسية الصغرى وبلغاريا حتى ولاية ابوليا تمجيدا لالهتنا ، ولكم ولجميع معاشر التركمان».

على هذه الصورة اذا كانت خاتمة الرسالة .

٢٢- وكانت والدة كربوقا في حلب ، وقد قدمت لرؤية ولدها ، ولدى مقابلتها له اجهشت في البكاء وقالت سائلة اياه : « احقا ما سمعته ؟ فسألها : وماذا سمعت : فأجابته ؟ سمعت أنك متوجه لحرب جيوش الفرنجة ، فقال : لقد سمعت حقا ، فتوجهت إليه بقولها : أسالك يا ولدي بحق جميع الأرباب ، وبحق سجاياك الكريمة وعفوك ، ان تتراجع عن قتال الفرنجة ، أنت أيها الفارس الذي لا يعرف الهزيمة ، ولم يرك أحد قط فارا أمام أحد من الغزاة ، فلقد طبقت شهرتك وشجاعتك الآفاق ، حتى أن أشجع الفرسان ليرتجفون حين سماع اسمك أنى كانوا ومهما كانوا ، ونحن نعرف يا بني أنك أخو غمرات ورجل غارات ، عركتك الايام وعركتها ، ولن يستطيع أي شعب - وثنيا كان أم مسيحيا - أن يزهو أمامك ويتفاخر بقوته ، بل يهرب الجميع من أمامك لدى السماع باسمك كما تهرب النعاج من زئير الأسد ، لهذا كله أتوسل اليك يا ولدي الحبيب أن تسمع قولي وتصغي الي نصائحي ، فلا تحاول مطلقا التفكير في قتال الشعوب المسيحية أو منازلتها ».

وعندما فرغت من مقالاتها هذه أجابها مرعوبيا : « ما هذا الذي تتفوهين به يا أماء ، أترك جننت ، أم نزلت بك نازلة؟ ان بصحبتى عددا كبيرا من الامراء الذين ليس لدى المسيحيين من يناظرهم بين الكبار والصغار ، فأجابته : « اننى أعرف يا بني مصداق ماتقول ، وأن المسيحيين لايمكنهم الوقوف في وجهك في الحرب ، وأعلم أنهم عاجزون عن النهوض الى حربنا ، لكن ربهم يحارب دوما بين صفوفهم ، وهو يدافع عنهم ويحميهم ليلا ونهارا كما يحمي الراعي قطيعه ، ولايقبل أن تمسهم أية أمة بأذى شر أو سوء ، وأن ربهم سيؤذي كل من يتطلع الى مقاومتهم مصداقالما جاء على لسان النبي داود « نشئت الشعوب الذين يسرون للقتال (٦٨) » وقوله افض رجزك على الأمم الذين لايعرفونك وعلى الممالك التي لم تدع باسمك (٦٩) » ، وانك لترى كيف ان ربهم القوي الذي لايقهر قد قضى - قبل ان يصطفوا للحرب - على جميع أعدائهم بوساطة ملائكته ، اعرف الحقيقة يا ولدي الحبيب ، وأن هؤلاء النصرارى يسمون ابناء المسيح ، وقد جاء على لسان الرسل: « انهم اولاد الموعد (٧٠) » وقول الرسول ايضا: « انهم ورثة الله في ووارثون مع المسيح (٧١) » ، وهم الذين حباهم الرب بالميراث الذي وعدهم اياه ، ، لأنه القائل على لسان الرسل : « من المشرق الى المغرب تكون قوتهم في وجههم» (٧٢) فمن الذي يمكنه التصدي لهذه الأقوال ومناقضتها ؟ والحق أقول : أنك اذا أقدمت على حربهم عدت بالخسارة الكبيرة والعار المقيم ، وستفقد العديد من فرسانك المخلصين ، وتترك وراءك نخائرك غنيمة وتفر بإلحاقك الرعب الشديد ، أجل انك لن تقتل في هذه المعركة ، بل ستموت في بحر هذه السنة ، فالرب في غضبه يمهل ولايهمل من أساء اليه ، يترك حسابيه الى الساعة التي يقررها بذاته ، وعندها سينتقم منك أبشع انتقام ، ولهذا أخشى أن يراك الرب تستحق العذاب الشديد ، واننى أقول لك : انك ستخسر كل ماتملكه الآن يداك .

وكان وقع هذا الكلام على كربوقا شديدا ، فالتفت نحو أمه والأسى ظاهر عليه قائلا : « اننى أتوسل اليك يا أمي العزيزة أن

تخبريني وتبينني لي من الذي أخبرك بكل هذا عن الشعب المسيحي ، من الذي أعلمك أن ربه يحبه الى هذه الدرجة حتى أنه ليّمده بمثل هذا العون أثناء القتال ، ومن الذي أنبأك أن الغلبة ستكون لهؤلاء المسيحيين علينا أمام أنطاكية ، وأنهم سيفنمون نخائرتنا وأنهم سيسيروا خلفنا اثر نصرهم المؤزر علينا ، ثم من الذي أخبرك ان المنية ستخترمني فجأة في عامي هذا ؟

فأجابته أمه و الالم يعترض قلبها اعتصارا : « يا ولدي العزيز ، لقد وضع لبعضهم منذ أكثر من مائة عام أنه جاء في كتابنا وفي كتب الوثنيين أن الامم النصرانية ستقوم بالهجوم علينا وسيكتب لها النصر علينا في كل جهة ، وأنها ستسود على الكفار ، وأن شعبنا سيخضع لها ، وأنا لا أعرف يقينا فيما اذا كان مقدرنا لهذه الامور جميعا أن تقع الآن ، أم أنه لم يحن وقتها بعد ؟ فلقد لحقت بك - والاسى يحزن نفسي - من حلب - المدينة العظيمة التي تمكنت فيها بعد البحث والتدقيق ، ومن خلال سؤال النجوم واستطلاع البروج الاثني عشر والنبوءات الكثيرة ، ولقد أخبرتني هذه الظواهر جميعا أن الشعب المسيحي سيتغلب علينا أنى كنا ، وإنى لارتعد خوفا وأسى خشية أن أفقدك » .

فأجابها كربوقا : « أخبريني - يا أمي الغالية - بكل ما لا تتقبله نفسي ولا تؤمن به » ، فأجابته : « لا يا بني ما كان لي أن أستجيب لمطلبك هذا طواعية ، هذا لو كنت على بينة من الامور الخافية عليك » .

فقال لها : « إن بوهوموند وتانكرد ليسا من أرياب الفرنجة ، ولا يخلصانها من أعدائهم لانهما يأكلان في المرة الواحدة : ألفي بقرة وأربعة الاف خنزير (٧٢) » ، فأجابته أمه بقولها : « اعلم يا ولدي العزيز أن الموت سيطل بوهوموند وتانكرد كما سيطول بقية البشر ، لكن ربهما فضلهما على سواهما ومنحهما قدرة يحاربان بها الجميع ، لان ربهم القدير - تقديس اسمه - يقول : ( انه صنع

السماء والأرض والبحر وكل ما فيها) (٧٤) وإن عرشه موجود في السماء منذ الأزل وبأسه مرهوب في كل مكان» ، فانبرى ابنها يرد عليها بقوله: « لن امتنع عن قتالهم حتى لو كان الأمر كما تزعمين» ، تيقنت أنه لن يستجيب لنقدها الشديد له تركته وقلبهما يعتصر حزنا ، وتوجهت عائدة الى حلب ، حاملة معها ما أمكنها حمله من النخائر .

٢٣ - ووضع كربوقا - في اليوم الثالث (٧٥) - سلاحه ولبس لامته ، وحمل حتى اقترب من المدينة ، ومعه فئة كبيرة من التركمان ، وجاء هجومه من جهة القلعة ، وحيث اننا كنا قد خيل لنا ان في امكاننا دفعه ، فقد نظمنا صفوفنا وأعدناها للحرب ، ولكنهم أبلوا بلاء شديدا عجزنا حياله عن مقاومتهم ، وتراجعنا بصعوبة بالغة نحو المدينة التي كان بابها شديد الضيق ، لهذا مات عدد كبير منا خنقا تحت أقدام رفاقهم .

وفي خامس أيام الاسبوع كان بعض منا يحارب خارج المدينة وبعضنا الآخر من داخلها ، وظل الحال هكذا حتى حلول الظلام ، وفي تلك الأثناء استولى الهلع على نفوس وليم دي غراندميل وأخيه أوبرى وغي تروسو ، ولامبرت الفقير ( كونت كلير مونت ) وذلك نتيجة لقتال الأمس الذي استمر حتى المساء ، لهذا تسربلوا الظلام وانسلوا مترجلين في ظلمة الليل ومروا هاربين بجانب السور المقابل لشاطئ البحر ، وعانوا كثيرا ودميت أيديهم وأقدامهم ولم يبق فيهم سوى العظام ، وقد رافقهم في فرارهم هذا كثيرون ممن لا عرفه .

وعندما وصلوا الى السفن في ميناء السويدية ، قالوا لبحارة هذه السفن : « ماذا تفعلون هنا أيها الأشقياء ؟ لقد هلك رجالنا جميعا ولم يبق منهم أحد ، ولم ننج نحن الا بعد عذاب شديد ، حيث ان جيش التركمان كان يحاصر المدينة من جميع الجهات عندما كنا فيها ، فلما سمعوا هذه المقالة منهم دهشوا وجزعوا فانطلقوا

نحو مراكبهم مبحرين ، وتسارع التركمان نحوهم وفي آثارهم  
فقتلوا كل من صدقوه منهم ، وأضرموا النيران في المراكب الراسية  
في مجرى النهر واستولوا على ما خلفوه من أسلاب .

أما بالنسبة الينا نحن الذين بقينا ( محاصرين في المدينة ) فلم  
نعد نستطيع احتمال وطأة أسلحتهم لهذا أقمنا بينهم وبيننا سورا  
تناوبنا على حراسته ليلا ونهارا ، واشتد الحصار علينا وضاق بنا  
الحال حتى اضطررنا الى أكل خيولنا وحميرنا.

٢٤- وفي أحد الأيام ، وبينما كان مقدمونا مجتمعين في أعلى  
المدينة مقابل القلعة يتشاورون والحزن ظاهر عليهم واليأس قد  
استبد بهم اذا بواحد من الرهبان ( واسمه ستيفن فالنتان ) يمثل  
أمامهم ويخاطبهم بقوله : « أيها السادة ، هل لكم أن تصفوا الى  
ماسأقصه عليكم ، لقد رأيت البارحة حينما كنت نائما في كنيسة  
القديسة مريم - والدة الرب يسوع المسيح - رؤيا هاكم  
وصفها : لقد ظهر لي مخلص العالم ويرفقه أمه وبطرس الطوباوي  
سيد الحواريين ، وناداني قائلا : أوتعرفني ، فأجبتة بلا ، وعند  
ذاك رأيت فوق رأسه صليبا كاملا ، فسألني الرب  
ثانية : « أوعرفتني الآن » ؟ فأجبتة : « ماكان لي أن أعرفك لولا  
أنني رأيت فوق رأسك صليبا يماثل صليب مخلصنا ، فقال  
لي : « إنني هو بعينه » ، فانكبت في الحال على قدميه متذللا متوسلا  
اليه كي ينقذنا مما نحن فيه من المآسي ، فأجابني الرب : « لقد  
ساعدتكم فيما مضى ، وإنني ماض في مديد العون لكم ، كما  
ساعدتكم في الاستيلاء على نيقية ، وكما رعيتكم حتى أوصلتكم الى  
هنا ، ولقد أحزنني ماكابتموه من مشقة أثناء حصار  
أنطاكية ، ولكنكم استطعتم بفضل مساعدتي لكم أن تدخلوا المدينة  
سالمين غانمين ، بيد انكم فسقتم مع نساء فاسدات من المسيحيات  
والكفار ، فتصاعد النتن حتى بلغ السماء .»

وحينذاك ركعت البتول وبطرس الطوباوي على قدميهما متوسلين

اليه راجين ان يعطف علم ، شعبه فيعينه في محنته وينجسه مما ألم به ، وتوجه اليه بطرس المبارك بقوله : « أيها الرب ، لقد طال أمد استيلاء الشعب الوثني على بيتي الذي لحق به من جراء هذا الأمر مساوئ يعجز اللسان عن نعتها ، فلنطرد الآن الأعداء أيها الرب ، ولتفرح الملائكة في السماء .»

فالتفت الي الرب قائلاً : « امض الي شعبي وأخبره وليعد الي ، فسأعود أنا اليه ، وأمامه أيام خمسة سأبعث بعدها بعون عظيم ، ومره فليرتل كل يوم بهذه الترتيلة مع بقية المقاطع : « هو ذا الملوك اجتمعوا » (٧٦) .

والان أيها السادة إذا ساورك شك في صحة ماقلت ومارويت فاسمحوا لي أن أصعد الي رأس البرج ، وأن أطرح نفسي من أعلاه الي أسفله ، فإن سلمت فصدقوا بما قلت ، وأن أصابني سوء فاقتلوني أو اجعلوني طعمة للنار .

وعند ذلك أمر أسقف بوي باحضار الاناجيل والصليب ليقسم هذا الراهب على صحة مقاله ، واتفق في تلك الساعة مقدمونا على أن يقسموا بسبر القربان المقدس الا يحاول أحدهم - مادام حيا - أن يفر أو يحاول النجاة من الموت أو يسعى لانقاذ حياته ، ويذكر أن بوهموند كان أول من أقسم ثم تلاه كونت صنجيل ، فروبرت النورماندي ، فالأمير غونفري ، فكونت فلاندر ، أما تانكرد فلم يقتصر في يمينه على أنه لن يتخلى أبدا عن متابعة هذه الحرب ، بل زاد أنه لن يتخلى مطلقا عن الزحف نحو القبر المقدس حتى ولو لم يبق معه سوى أربعين فارسا .

ولما تناهت أخبار هذا القسم الي الجيش المسيحي نبت الفرحة بين صفوف رجاله جميعا .

٢٥- وكان هناك حاج من جيشنا اسمه بطرس (٧٧) (بارثليمو) تراءى له القديس اندراوس الرسول قبل

دخلونا الى المدينة وقال له : « ماذا تفعل هنا أيها البطل الصنيد ؟ فأجابه : وأنت ، ثم من أنت فقال له الرسول : « انني الحواري أندراوس ، اسمع يا بني عرج - حين نـخـوـلك الى المدينة - على كنيسة القديس بطرس - القسيان - وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح التي طعن بها حين رفع على خشبة الصليب ، ثم اختفى الرسول بعد ما فاه بهذه العبارة .

وخاف هذا الرجل من الجهر بما أشار به الحواري عليه ، فأمسك عن اخبار حجاجنا بفصوى تلك الرؤيا ، وخيل اليه أن ماراه كان مجرد أضغاث أحلام ، لهذا ردد في نفسه : ترى من يستطيع تصديق هذا ؟ وماكاد يفرغ من ذلك حتى أخذه القديس أندراوس وسار به شطر تلك الناحية حيث كانت الحربة مطمورة تحت الأرض .

وفي الساعة التي كنا موجودين فيها في ذلك الوقت الشديد الذي وصفته آنفا (٧٨) عاد القديس اندراوس الى بطرس وقال له: لماذا لم تخرج الحربة من باطن الأرض كما أشرت عليك ، أولا تعلم أنه لم يغلب قوم قط حملوا هذه الحربة معهم في الحرب ؟! ، وهنا أفضى بطرس بالحال الى حجاجنا بالخبر وكشف السر الذي استودعه إياه القديس الحواري ، فلم يصدق القوم بل أنكروا ما قال ، وسألوه : كيف نؤمن بصحة هذا القول ؟.

وكان الهلع مستوليا على نفوسهم ، وكانوا يتوقعون الموت بين ساعة وأخرى ، فذهب بطرس اليهم وأقسم لهم أنه صادق في كل ما قاله ، وأن القديس أندراوس تراءى له مرتين وقال له : انهض وامض الى الشعب وأخبره ألا يخشى شيئا ، بل عليه أن يؤمن إيماننا صادقا من كل قلبه بإله الرب واحد حقيقي ، وأنه سيقتصر في كل مكان ، وأن الرب سوف يبعث اليه في الأيام الخمسة المقبلة برسالة تملؤكم فرحا وحبورا واذا أراد الشعب القتال فليخرج بأجمعه متحدا الى الحرب ، فسيقتصر على جميع أعدائه نصرا مبينا ، لن تقوم له بعده قائمة أبدا .

ولما سمع الحجاج بأن القضاء الشامل على أعدائهم سينجز على أيديهم ، استعادوا رباطة جأشهم وأخذ بعضهم يشجع بعضا قائلين : انهضوا وكونوا رجالا شجعانا عقلاء لان الرب سيبارك في الحال الى عوننا و سيكون في ذلك عزاء لشعبه الذي يرى الآن ما هو فيه من شدة .

٢٦- وراح التركمان الذين كانوا في الاجزاء العليا من القلعة يزحفون نحونا حتى صاروا على مقربة منا ، ونجحوا ذات مرة في محاصرة ثلاثة من فرساننا في برج كان واقعا قبالة قلعتهم ، وفي الحقيقة وجد الكفار منفذا انقضوا منه عليهم بشدة وعنف الى حد أنهم لم يستطيعوا الصبر على مجاللتهم ، وخرج من البرج اثنان من الفرسان قد أصيبا بالجراح ، أما الثالث فقد صمد في الدفاع عن نفسه ، ودافع التركمان لمدة يوم كامل ، وقتل منهم اثنان امام السور ، بعدما تكسرت في يديه ثلاث حراب ، وواجه الفارسان حتفهما ثم لحق بهما الثالث وكان اسمه هيج الثائر ، وكان من أصحاب غودفري دي مونت سكايبوزو (٧٩) .

ولما وجد بوهموند المبجل أنه من المحال ايجاد رجال يقومون بمهاجمة القلعة ، لبقاء الجميع في بيوتهم بسبب المجاعة وخوفا من التركمان ، لما وجد هذا الحال اشتد به الغضب وأمر بالقاء النار في المدينة في الناحية التي قام بها قنبر يغي سغان ، و لما تراءى منظر النيران للجماعات التي كانت داخل البيوت غادرت مساكنها ، وخلفت كل ماكانت تملكه ناجية بحشاشة نفوسها ، فانطلق فريق باتجاه القلعة ، وفريق آخر الى باب كونت صنجيل ، وفريق ثالث نحو باب غودفري ، أي أن كل فريق توجه هاربا نحو الجماعة التي انتسب اليها .

وثارت في تلك الساعة فجأة ريح شديدة ، لم يستطع أحد أن ينتصب حيالها واقفا ، مما بعث الأسى في نفس بوهموند العاقل ، فقد خشي أن يمتد الحريق الى كنيسة القديس بطرس

والقديسة مريم وسواهما من الكنائس . واستمرت هذه المحنة من الساعة الثالثة حتى منتصف الليل ، وأتت النيران على ألفي بيت وكنيسة ، ثم خمدت جنوتها حين أوشك الليل على الانتصاف .

ولم يتوقف التركمان الذين كانوا في داخل المدينة عن حربنا ليلاً ونهاراً ، ولم يعد يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب لأنه لم يعد بالإمكان أكل الخبز لمن كان معه خبز ، وشرب الماء لمن كان معه ماء ، ولهذا شيّدوا بينهم وبين التركمان سوراً من الجير والكلس ، وأقاموا حصناً وضعوا فيه مختلف الأعتدة اللازمة لضمان سلامتنا ، وأقام في الوقت نفسه فريق من التركمان في القلعة في حين عسكر الفريق الآخر في واد قريب من القلعة .

ومع حلول الظلام لاحت في السماء نار مقبلة من جهة الغرب ، وأخذت في الاقتراب حتى سقطت وسط معسكر الجيش التركماني ، فاستولت الدهشة على رجالنا وعلى التركمان سواء ، ومع اشتراق الصباح فر الخائفون جزعاً ورهبة من رؤية هذه الظاهرة السماوية حتى إذا بلغوا باب بوهموند عسكروا عنده .

ودأب رجال شحنة القلعة على مناوشة رجالنا القتال ليلاً ونهاراً ، فجعلوهم مابين جريح وقتيل بفعل نشاطهم ، أما بقية التركمان فقد أخذوا في تشديد الحصار على المدينة من جميع النواحي الى حد انه لم يعد يجروا احدنا على الخروج منها او الدخول اليها الا ليلاً او بالخفاء ، وبذلك صرنا نعاني ونكابد من هذا الحصار الضيق الشديد والعذاب على ايدي هؤلاء الأعداء الذين كانوا في الأعداد الدثرة .

وشرع أعداء الرب الدنسون هؤلاء في تشديد الحصار علينا ونحن في داخل انطاكية حتى مات العديد منا جوعاً ، وغلت الأسعار حتى كان الرغيف يباع ببيزننتية ، ولا حاجة بي الى نكر النبيذ

لانعدامه ، وأكل الفرنجة لحوم الخيول والحمير وابتاعوها ، وبيعت  
السجاجة بخمس وعشرين « سوسية » والبيضسة  
« بسوستين » والجوزة بديناري ، و على هذا كان كل شيء يباع  
بأثمان خيالية ، ولهذا عمت المجاعة واشتدت نكايتها ، حتى أخذ  
بعضهم يقيم المطابخ التي يقدم فيها للناس أوراق التين والعنب  
والعظام ، وطهى آخرون في مطابخهم جلود الخيول والجمال  
والأبقار والجواميس اليابسة ، ولقد عانينا كل هذه الآلام والشدائد  
وسواها مما يستحيل وصفه في اسم المسيح ، ولكي نمهد الطريق  
حرا الى القبر المقدس .

وهكذا مر بنا ستة وعشرون يوما ونحن فرائس لهذه الشدائد  
والمصاعب وأمثالها .

٢٧- كما وقام كونت شارتر (٨٠) الذي مال عن منهج  
السداد - وكان سبق لمقدمينا أن انتخبوه رئيسا أعظم - فتظاهر  
بالمرض وذلك قبل الاستيلاء على أنطاكية ، وارتد بكل خزي والعار  
يجلله الى بلدة أخرى حصينة اسمها الاسكندرونة ، ورحنا ننتظر  
قدومه الى نجدتنا كل يوم ، ونحن على مانحن عليه داخل  
المدينة ، دون مساعدة تخلصنا مما كنا فيه .

فهو ماكاد يعرف بأن جيش التركمان محقق بنا ومحاضر لنا حتى  
تسلل سرا وصعد رأس جبل (٨١) قريب من أنطاكية ، فشاهد الخيم  
التي لا يحصيها عد ، واذ ذاك استبد به الهلع ، فارتد بجنده بكل  
سرعة ، حتى اذا وصل الى معسكره قوض خيامه ورحل ومعه رجاله  
موليا الادبار (٨٢) .

ولما نخل على الامبراطور في بلدة فيلوميون (٨٣) سأله الاجتماع  
به على انفراد حيث قال له: « اعلم انه قد تم استيلاء التركمان على  
ماحول أنطاكية ، أما المدينة فلم تسقط في أيديهم بعد ، وترك  
رجالنا وهم يعانون من شدة الحصار ، ومن المرجح انهم ماتوا الآن

جميعا على أيدي التركمان ، وعليك ان ترجع بأسرع مايمكنك حتى  
لاتقع انت وجنك فريسة في أيديهم .

واستبد الخوف بالامبراطور وجزع جزعا شديدا ، فاستدعى اليه  
غي اخا بوهميموند (٨٤) وجماعة أخرى وخاطبهم بقوله: « أيها  
الساة ترى ما نحن فاعلون؟ هاهم التركمان قد ضيقوا الخناق على  
جميع اخواننا ، وربما يكونون الآن قد فتكوا بهم وبادوهم او  
اخذوهم اسرى ، كما يذكر لنا هذا الكونت الذي فر « بخزي » وارى  
بات علينا أن نبائر بالتراجع قبل أن يلحق بنا مالحق إخواننا من  
الفناء المروع .»

ولما سمع غي - الفارس الشجاع - هذه الأكاذيب اجهش في  
البكاء هو ومن معه ، وانتحب نحيبا طويلا وصاح وصاحوا : أيها  
الرب المتعال ، أيها الثالث الواحد ، لماذا ارتضيت بحدوث هذه  
الامور جميعا ، لما ارتضيت لشعبك المؤمن بك أن يقع في أيدي  
اعدائه ، لماذا سارعت فتخلت عن هؤلاء الذين يسعون الى تمهيد  
الطريق نحو هيكلك وجعله حرا طليقا أمنا ، يارب لو صح ماسمعناه  
وتحقق ماقاله هؤلاء الأشقياء ، فاننا سنهجرك نحن والمسيحيون  
الآخرون ، ولن تعود تخطر ببالنا ، ولن يجرؤ واحد منا بعد ذلك  
على الدعاء باسمك أبدا .

وسبرت هذه الاخبار المشؤومة بين صفوف الجيش  
اجمعها ، حتى أنه انقضت عدة أيام لم يهتف فيها واحد من  
الأساقفة أو الشماسة أو رجال الاكليروس أو العلمانيين باسم  
المسيح أو أتى على ذكره .

وفي الحقيقة لم يستطع أحد أن يقدم العزاء أو المواساة  
إلى غي الذي ماانفك يبكي وينتحب ويضرب على صدره ويلوي  
أصابعه وهو يقول : وأأسفاه ياسيدي بوهموند ياشرف الدينا  
وزينة العالم ، يامن كانت الدنيا تخافه وتحبه ، واشقوتاه ، اي  
قاصمة نزلت بي واي داهية ، أما كنت استحق في مصيبتى بك ان

أرى طلعتك البهية ، لقد كان هذا غاية سؤالي ومطلبي ، من ذا الذي يمكنني من ان افديك بنفسي ، ياسيدي ، يا صديقي الغالي ، لماذا لم أواجه منيتي يوم ولتنتي أمسي ، ولماذا كتب علي ان اعيش حتى أشهد يومك المشؤوم ، لماذا لم أغرق ، لماذا لم يكب بي فرسي فيندق عنقي ؟ كم كنت أتمنى أن أكون معك فأنال الشهادة الكريمة وأشهدك وأنت تواجه منيتك بشرف وشجاعة .

ولما جاء الجميع لتقديم العزاء له ومحاولة مواساته ، استرد صوابه وأفاق ثم قال : ترى ماذا ترون بهذا الفارس العجوز الذي فقد صوابه ، هل سمعتم قط أنه أنجز عملاً من أعمال الفروسية ؟ لا ، لقد اختفى وهرب متسربلاً بالعار ، وتستر خائفاً كما يتستر الشقي الأثيم ، الا فليكن معلوماً لديكم جميعاً أن كل ماتفوه به هذا الشقي هو أفك وباطل محض .

وأرسل الامبراطور في تلك الأثناء أوامره وتعليماته الى رجاله قائلاً لهم : « انهضوا وقودوا جميع رجال هذه المنطقة نحو بلغاريا ، وقبل ذلك جوسوا خلال الديار ، فخرّبوا جميع البقاع حتى اذا قدم التركمان لم يجدوا شيئاً » .

وارتد رجالنا - طوعاً وكرهاً - وهم في غاية الحزن واليأس وقد دب الخور في نفوس كثير من حجاجنا وغدوا عاجزين عن اللحاق بالجيش ، فتوقفوا عن السير ، وهلك بعضهم أثناء الطريق ، اما الباقون فعادوا الى القسطنطينية .

- ولدى سماعنا لأقوال ( بطرس بارتلميو ) الذي نقل الينا ما أوحاه المسيح على لسان الرسول ، اندفعنا بكل سرعة ممكنة نحو كنيسة القديس بطرس التي نكرها ، وعمل ثلاثة عشر رجلاً منا في الحفر من الصباح حتى المساء ، وأنداك عثر الرجل على الحربة في الموضع الذي أشار اليه ، فتلقفها القوم بفرح عظيم وبهزيمة شديدة ، وعمت المدينة بهجة شاملة (٨٥) .

وعقدنا في تلك الساعة مجلسا حربيا للتشاور فيما بيننا عما علينا صنعه ، وعند ذلك انعقد اجماع قادتنا على المبادرة بانفاذ رسول الى التركمان - أعداء المسيح - ليسألهم - بوساطة أحد المترجمين - السؤال التالي : « ما الذي دعاهم الى دخول أرض المسيحيين وهم في حنق شديد ، وما الذي دفعهم لاقامة معسكرهم هناك ، وفتكهم بعبيد المسيح وقتلهم اياهم ، ولما انتهت أعمال المشاورة استدعوا بعض الرجال ومنهم بطرس الناسك وهرلوان وزويوهم بالتعليمات التالية قائلين لهم : « امضوا فابحثوا عن جيش التركمان الملعون ، وقصوا عليه هذا كله في دقة ، واسألوهم لماذا دعاهم غرورهم وبطشهم الى اقتحام أرض المسيحيين التي هي أرضنا نحن ايضا » .

ولدى سماع الرسل لضمون رسائلهم انطلقوا لساعتهم ، وقدموا مقر قيادة الكفرة وأفضوا الى كربوقا ورجاله برسالتهم التي كان مضمونها : « لقد دهش قانتنا ومقدمونا أشد الدهشة كيف دفعكم التهور والطيش الى دخول أرض المسيحيين ، التي هي أرضهم ايضا ، هل لنا ان نفترض انكم قدتمت هاهنا بغير اعتناق المسيحية ، أم ترى ان الدافع للقنوم هو انزال شتى ضروب المساويء بالنصارى وبمختلف الطرق ؟ ان قانتنا يطلبون منكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين ، التي هداها بطرس الطوباوي بمواعظه من قبل ، وقادها الى الايمان بعقيدة المسيح ، وان قانتنا يسمحون لكم باصطحاب كل ما لديكم من الخيول والبغال والحمير والابل والماشية والثيران وكل ما تملكون ، ونقل كله معكم الى حيث شئتم » .

وغضب كربوقا - قائد جيش ملك فارس - غضبا شديدا ، وأخذته ومن معه العزة بالاثم فأجابوهم بغلظة : « إنا لانبالي بكم ولا بربكم ونصرانيتكم ، ولانرتضيها وإياكم ، وسنسحقكم معها سحقا تاما في أن واحد ، والذي حملنا على القنوم الى هاهنا هو دهشتنا كيف يدعي المقدمون والقادة

الذين نكرتموهم ملكية أرض نحن أخذناها من الأمم المدالة ، والآن هل تريدون سماع ربنا عليكم ؟ ارجعوا مسرعين الى مقدميكم وأخبروهم أنهم اذا كانوا يريدون ان تتركوا ، وتهجروا ، ربكم الذي تسجون له ، وتنبذوا شرائعكم التي أنتم مقيمون عليها الآن ، فاننا نعطيهم هذه الأرض ، بل ما هو أكثر منها ، ونهبهم البلدان والحصون ، وأنداك لن يبقى واحد منكم راجلا ، بل ستكونوا جميعا فرسانا مثلنا ، وستوثق بيننا وبينكم صداقة راسخة ، ومودة مكينة ، وان لم يقبلوا بهذا ويفعلونه فعليهم أن يعرفوا انهم سوف يلاقون حتفهم ، أو سندسوقهم مكبلين بالقيود الى خراسان حيث سيقون في أسرنا الى مالانهاية ، وسيكونون عبيدا لنا ولأبنائنا على مدى الأيام والعصور .

وسرعان ما عاد الينا رجالنا وأخبرونا بكل ما سمعوه من هذه الطغمة الفظة المتوحشة ، ويذكر أن هرلوان الذي كان يعرف اللسانين ( اللاتيني والتركي ) كان يقوم بالترجمة لبطرس الناسك ، ونزلت في هذه الأونة بجيشنا نازلتان لم ندر كيف نتصرف حيالهما : الأولى المجاعة الرهيبة التي أعدمنا قوانا ، والثانية الرعب الشديد الذي استبد بنا من التركمان .

٢٩- بعد أن أنتهى الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام ، وفرغوا مما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في مختلف الكنائس ، وشرعوا بطقوس الاعتراف بخطاياهم ، وبعدما أنجزوا هذا كله تناولوا القربان المقدس الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات وأقاموا القداسات .

بعد هذا التأمت صفوف ست فرق من المقاتلين الذين كانوا داخل المدينة ، وكان في الفرقة الأولى التي تقدمت سواها : هيوج الكبير ومعه الفرنسيون و بوق فلاندرز ، وكان في الثانية غودفري و رجاله ، و في الثالثة روبرت النورمندي ومعه فرسانه ، وقاد أسقف لي بوي الفرقة الرابعة وحمل معه حربة المخلص (٨٦) وكان معه

رجالهم ورجال ريموند الصنجيلي الذي تخلف في المدينة امام الحصن خوفا من هجوم التركمان منه وللحيلولة بينهم وبين النزول الى المدينة ، وكان تانكرد - بن المركيز - في الفرقة الخامسة ومعه رجاله ، وفي السادسة بوهوموند العاقل ومعه فرسانه .

وما أن تدثرا ساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بطلهم المقدسة حتى خرجوا برفقتنا حاملين الصليبان ، ممجدين الرب ومبتهلين اليه أن ينقذنا ويحمينا من كل سوء ، كما اعتلى بعضهم فوق الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسموا فوقنا علامة الصليب وباركونا ، ولما اكتمل جهازنا تدرعنا بالصليب وخرجنا من الباب المقابل للمحرمة .

ولما رأى كربوقا ماكانت عليه فرق المسيحيين من النظام المدهش ، وهي خارجة واحدة اثر أخرى قال : « اتركوهم يخرجوا فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في أيدينا » ، لكنه ما أن رأى جيوش الفرنجة الدثرة تغادر الأبواب حتى استولى عليه الخوف ، وسرعان ما أمر قائده الموكل بالحراسة العامة ان يأمر بالتراجع ، اذ شاهد النار تتأجج في طلائع الجيش ، وبهذا حاقت الهزيمة بالتركمان (٨٧) .

وشرع كربوقا - دونما توقف - في التراجع على مهل، نحو الجبل ، ورجالنا في اثره بالخطى نفسها ، ثم انقسم التركمان الى قسمين ، اتجه أحدهما باتجاه البحر ، بينما توقف رجال الفريق الثاني في مواقفهم مؤملين في تطويقنا ، ولما شعر قادتنا بما يحيكه العدو لهم فعلوا مثل فعلته فسيروا فرقة سابعة فيها من رجال الدوق غودفري وكونت نورمندي ، وعهدوا بقيادتها الى رينالد وبعثوا بها لاعتراض التركمان القادمين من ناحية البحر ، واشتبك التركمان برجالنا وقتلوا العديد منهم بنشابهم ، وفي الوقت نفسه جرى تشكيل فرق اخرى انتشرت من النهر حتى الجبل وغطت مساحة ميلين . وشرعت تلك الفرق في الزحف نحونا من الجهتين ، وأحدقت

برجالنا ، وأخذت تنضحهم بنشابها وترميهم بحرابها ، وشوهد في هذه الساعة عن بعد عساكر لا يحصيها العد قادمة من جهة الجبل ممتطية خيولا بيضاء ورافعة رايات بيضاء ايضا ، ولما رأى رجالنا هذا الجيش لم يعرفوا هويته ولا لمن هو عائد ، لكنهم مالبثوا ان عرفوا أنه نجدة المسيح بقيادة القديسين جرجس ومرغوريوس وديمتري ، وينبغي تصديق هذه الرواية ، لأن العديد من رجالنا رأوا هذه الآية الباهرة .

ولما أدرك التركمان المتمركزون على مقربة من البحر أنه لم تعد لديهم المقدرة على مدافعة العدو ، أشعلوا النيران في الأعشاب هناك حتى يراها القاعدون في الخيم ، فيلونوا بالفرار ، ولما رأوا هذه الاشارة حملوا معهم كل شيء له قيمة وانطلقوا فارين ، وتقدم رجالنا على مهل لمحاربة الفريق الاعظم من عساكرهم ، وتوجهوا نحو معسكرهم ، وسارع غودفري وهيوج الكبير وكونت فلاندر بالانطلاق نحو طرف النهر ، فصادفوا هناك العديد من جفافلهم فتسلحوا بشارة الصليب وانقضوا عليهم وهاجموهم هجمة رجل واحد ، ولما رأى بقية رجالنا ذلك طاردوهم هم بدورهم ايضا ، وتعالى صراخ التركمان والفرس ، أما نحن فقد سبجنا باسم الرب الحي الصادق ، وصدقناهم الحرب باسم يسوع المسيح والمنبج المقدس ، واشتبكنا معهم في القتال ، وانتصرنا عليهم بعون الرب .

واستبد الرعب بالتركمان فمضوا فارين ، ولاحقهم رجالنا وساروا في آثارهم حتى خيامهم ، وأثر فرساننا فرسان المسيح أن يتابعوا مطاربتهم ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم من الانشغال بالاستيلاء على الغنائم ، واستمروا في تعقبهم حتى جسر العاصي فقطعه تانكرد ، وخلف الاعداء وراءهم خيمهم وذهبهم وفضتهم مع كثير من الامتعة والماشية والثيران والماعز والبغال والابل والحمير والقمح والطحين والنبيد ، وغير ذلك كثير مما كنا بحاجة اليه ، ولما وصل خبر نصرنا على التركمان الى مسامع الأرمن والسريان

القاطنين في تلك المنطقة طاروا نحو الجبل بغية سد الطريق في وجه التركمان ، وهكذا فتكوا بهم وقتلوا كل من تمكنوا من امساكه .

وعدنا الى المدينة في نشوة عظيمة ، واخذنا نحمد الرب ونمجده على أن وهب جماعته النصر ، واستبد الرعب بشحنة القلعة حين شهد كربوقا وعساكره يفرون من ساحة القتال أمام جيوش الفرنجة ، وسرعان مابادر الى طلب الرايات الفرنجية فأمر كونت صنجيل – الذي كان مرابطا أمام القلعة – برفع رايته نون سواه ، فأخذها منه وسارع الى ركزها على البرج ، لكن لما شاهدها اللومبارديون الذين كانوا هناك قالوا : « هذه ليست راية بوهموند » ، فسألهم ( أحمد بن مروان ) : « فراية من اذا ؟ فأجابوه : « انها راية كونت صنجيل ، وعندك تقدم ( أحمد ابن مروان ) واقتلع الراية ، وردها الى صاحبها وقدم في تلك الساعة بـوهموند المبجل ، وناول رايته الى ( القائد ) التركماني ، الذي تلقفها بسرور ، وعقد اتفاقية مع الأمير بوهموند ، يأنن ( بوهموند ) بموجبها للكفرة الذين يرغبون في اعتناق المسيحية بالبقاء معه ، ويسمح لمن رغب عنها بالانصراف سالمين أمنين نون أن ينزل بهم انى ضرر أو اذى .

ووافق ( بوهموند ) على جميع مطالب الشحنة ، وسرعان ماأنزل سر جنديته في القلعة ، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى جرى تعميد الشحنة المسلم وجميع الذين آثروا الايمان بالمسيح ، أما الذين فضلوا البقاء على دينهم أرسلهم الأمير بوهموند الى بلاد المسلمين .

وجرت هذه الواقعة في اليوم الرابع قبل مستهل تموز ، ليلة عيد الحواريين بطرس وبولص ، في حكم الرب يسوع المسيح ، الذي له الشرف والمجد السرمدى على مر الدهور . أمين .